لِلسَّفِينَةِ «منغوليا». وَسُرْعَانَ مَا أَصْبَحَ الرَّجُلَانِ صَدِيقَيْنِ وَبَدَآ يَتَمَشَّيَانِ مَعًا يَوْمِيًّا عَلَى ظَهْرِ السَّفِينَةِ، وَبَيْنَمَا كَانَا يَسِيرَانِ معًا كَانَا يَتَحَدَّثَانِ عَمَّا قَدْ تَكُونُ عَلَيْهِ الْحَيَاةُ فِي الْهِنْدِ.

حَاوَلَ فيكس أَنْ يَسْتَدْرِجَ باسبارتو لِيَتَحَدَّثَ أَكْثَرَ عَنْ فيلياس فوج وَجَوْلَتِهِ الْغَرِيبَةِ حَوْلَ الْعَالَمِ، وَكَانَ باسبارتو يُجِيبُ دَائِمًا بِصَرَاحَةٍ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ الْكَثِيرَ، وَلَمْ تَكُنِ الْمَعْلُومَاتُ الْقَلِيلَةُ الَّتِي يُمْكِنُ أَنْ يُشَارِكَهُ إِيَّاهَا ذَاتَ أَهَمِّيَّةٍ لِلْمُحَقِّقِ فيكس.

وَبَيْنَمَا كَانَتْ «منغوليا» تَشُقُّ طَرِيقَهَا فِي عُرْضِ الْبَحْرِ، مَرُّوا بِمَدِينَةِ المخاء، وَعَبَرُوا مَضِيقَ بَابِ الْمَنْدَبِ، ثُمَّ تَوَقَّفُوا فِي عدن لِلتَّزَوُّدِ بِالْفَحْمِ. وَكَانُوا لَا يَزَالُونَ عَلَى بُعْدِ سِتِّمِائَةِ مِيلٍ مِنْ بومباي.

ذَهَبَ فوج مَرَّةً أُخْرَى إِلَى الرَّصِيفِ لِخَتْمِ جَوَازِ سَفَرِهِ وَعَادَ إِلَى السَّفِينَةِ، بَيْنَمَا كَانَ باسبارتو يَتَجَوَّلُ لِيُلْقِيَ نَظْرَةً عَلَى الْمَكَانِ. وَفِي تَمَامِ السَّاعَةِ السَّادِسَةِ عَادَتِ الْبَاخِرَةُ لِتَشُقَّ طَرِيقَهَا فِي عُرْضِ الْمُحِيطِ، وَكَانَتِ الرِّحْلَةُ مِنْ عدن إِلَى بومباي سَتَسْتَغْرِقُ سَبْعَةَ أَيَّامٍ فَقَطْ. وَكَانَ الْمُحِيطُ الْهِنْدِيُّ هَادِئًا، وَحَقَّقَتْ «منغوليا» وَقْتًا قِيَاسِيًّا؛ إِذْ وَصَلَتْ قَبْلَ مَوْعِدِهَا بِيَوْمَيْنِ.

عِنْدَمَا رَسَتِ السَّفِينَةُ فِي الْمِينَاءِ، دَوَّنَ فيلياس بِهُدُوءٍ فِي دَفْتَرِهِ الْيَوْمَيْنِ اللَّذَيْنِ رَبِحَهُمَا مِنْ وُصُولِ السَّفِينَةِ مُبَكِّرًا، كَمَا دَوَّنَ كَذَلِكَ الْوَقْتَ وَعَدَدَ الْأَمْيَالِ الَّتِي قَطَعُوهَا.

بَعْدَ أَنْ وَدَّعَ فيلياس شُرَكَاءَهُ فِي اللَّعِبِ عَلَى مَتْنِ «منغوليا»، كَلَّفَ باسبارتو بِبَعْضِ الْمَهَامِّ، وَشَرَعَ هُوَ فِي الْبَحْثِ عَنْ مَكْتَبِ الْجَوَازَاتِ. وَكَانَ مَعَهُمَا بِالْفِعْلِ تَذَاكِرُ لِلسِّكَكِ الْحَدِيدِيَّةِ الَّتِي تَقْطَعُ الْهِنْدَ مِنْ بومباي إِلَى كلكتا، وَكَانَ مِنَ الْمُقَرَّرِ أَنْ يَبْدَأَ الْقِطَارُ رِحْلَتَهُ فِي تَمَامِ السَّاعَةِ الثَّامِنَةِ مِنْ ذَلِكَ الْمَسَاءِ، وَأَكَّدَ فيلياس عَلَى باسبارتو أَنْ يَعُودَ قَبْلَ ذَلِكَ الْوَقْتِ.

اتَّجَهَ فيلياس إِلَى مَحَطَّةِ السِّكَّةِ الْحَدِيدِيَّةِ لِيَتَنَاوَلَ غَدَاءَهُ حَامِلًا جَوَازَ سَفَرِهِ الْمَخْتُومَ فِي يَدِهِ، أَمَّا فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِعَجَائِبِ بومباي، فَلَمْ يَكُنْ يَكْتَرِثُ حَقًّا لِرُؤْيَتِهَا.

وَبَيْنَمَا كَانَ فيلياس يُحَاوِلُ تَنَاوُلَ وَجْبَةٍ سَيِّئَةٍ لِلْغَايَةِ مِنْ لَحْمٍ غَرِيبٍ، اتَّجَهَ فيكس لِيَبْحَثَ عَنْ قِسْمِ شُرْطَةِ بومباي، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ مُحَقِّقٌ مِنْ لَنْدَنَ يَتَعَقَّبُ لِصًّا، وَأَرَادَ أَنْ يَعْرِفَ إِذَا مَا كَانَتْ مُذَكِّرَةُ إِلْقَاءِ الْقَبْضِ عَلَى ذَلِكَ اللِّصِّ قَدْ وَصَلَتْ أَمْ لَا. لَكِنَّهَا لَمْ تَصِلْ، فَحَاوَلَ فيكس إِقْنَاعَ الشُّرْطَةِ بِكِتَابَةِ مُذَكِّرَةٍ أُخْرَى، وَلَكِنَّهُمْ رَفَضُوا وَقَالُوا إِنَّ ذَلِكَ الْأَمْرَ

شَأْنُ شُرْطَةِ لَنْدَنَ؛ فَلَمْ يُجَادِلْهُمْ فيكس؛ لِأَنَّهُ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ فيلياس فوج لَنْ يَمْكُثَ فِي بومباي لِفَتْرَةٍ طَوِيلَةٍ عَلَى أَيَّةِ حَالٍ، وَكَانَ عَلَيْهِ إِيجَادُ وَسِيلَةٍ أُخْرَى لِإِلْقَاءِ الْقَبْضِ عَلَيْهِ.

فِي هَذِهِ الْأَثْنَاءِ، كَانَ باسبارتو قَدِ انْطَلَقَ لِتَنْفِيذِ مَهَامِّهِ، وَكَانَ قَدْ بَدَأَ يُصَدِّقُ أَنَّهُمَا بِالْفِعْلِ فِي سِبَاقٍ حَوْلَ الْعَالَمِ. وَبَعْدَمَا قَامَ بِشِرَاءِ الْقُمْصَانِ وَالْجَوَارِبِ الْجَدِيدَةِ الَّتِي طَلَبَهَا فيلياس، أَمْضَى بَعْضَ الْوَقْتِ فِي اسْتِكْشَافِ شَوَارِعِ بومباي وَمَيَادِينِهَا الْمُزْدَحِمَةِ، وَكَانَ النَّاسُ يَرْتَدُونَ مَلَابِسَ مُخْتَلِفَةَ التَّصْمِيمِ! فَكَانَتْ هُنَاكَ الْقُبَّعَاتُ الْمُدَبَّبَةُ وَالْعِمَامَاتُ وَالْقَلَنْسُوَاتُ الْمُرَبَّعَةُ وَعَبَاءَاتٌ طَوِيلَةٌ؛ فَكَانَ كُلُّ شَخْصٍ يَبْدُو مُخْتَلِفًا!

وَفِي خِلَالِ سَيْرِهِ، وَجَدَ باسبارتو نَفْسَهُ فِي وَسْطِ مَوْكِبٍ وَفِيهِ فَتَيَاتٌ يَرْتَدِينَ مَلَابِسَ جَمِيلَةً وَيَرْقُصْنَ بَيْنَمَا يَضْرِبْنَ دُفُوفًا صَاخِبَةً. وَعِنْدَمَا مَرَّ الْمَوْكِبُ وَجَدَ باسبارتو نَفْسَهُ قَدِ انْجَذَبَ إِلَى مَعْبَدٍ، وَمَا لَمْ يَكُنْ يُدْرِكُهُ هُوَ أَنَّ الْأَجَانِبَ مَمْنُوعُونَ مِنْ دُخُولِ هَذِهِ الْمَعَابِدِ، وَكَانَ دُخُولُهُ غَيْرَ قَانُونِيٍّ!

مَا إِنْ وَطِئَتْ قَدَمَا باسبارتو أَرْضَ الْمَعْبَدِ حَتَّى وَجَدَ نَفْسَهُ مُلْقًى عَلَى الْأَرْضِ فَجْأَةً! فَقَدِ انْقَضَّ عَلَيْهِ ثَلَاثَةُ رُهْبَانٍ غَاضِبُونَ وَأَخَذُوا يَضْرِبُونَهُ وَيَصْرُخُونَ بِلُغَةٍ غَرِيبَةٍ، ثُمَّ خَلَعُوا عَنْهُ حِذَاءَهُ! هَبَّ باسبارتو وَاقِفًا عَلَى قَدَمَيْهِ وَدَفَعَ اثْنَيْنِ مِنْ مُهَاجِمِيهِ بَعِيدًا وَانْطَلَقَ خَارِجًا مِنَ الْبَابِ بِأَقْصَى سُرْعَةٍ.

عِنْدَمَا وَصَلَ إِلَى مَحَطَّةِ السِّكَّةِ الْحَدِيدِيَّةِ، كَانَتِ السَّاعَةُ الثَّامِنَةَ إِلَّا خَمْسَ دَقَائِقَ، وَكَانَ قَدْ فَقَدَ حُزْمَةَ الْجَوَارِبِ وَالْقُمْصَانِ الْجَدِيدَةِ فِي الْمُشَاجَرَةِ، وَحَاوَلَ باسبارتو أَنْ يَشْرَحَ مَا حَدَثَ، وَلَكِنَّ فيلياس كَانَ مُسْتَاءً مِمَّا حَدَثَ.

وَفَوْرَ صُعُودِهِمَا إِلَى الْقِطَارِ قَالَ فيلياس: «آمُلُ أَلَّا يَتَكَرَّرَ هَذَا مُجَدَّدًا.» خَفَضَ باسبارتو رَأْسَهُ فِي خَجَلٍ وَوَعَدَ بِأَنَّ مَا حَدَثَ لَنْ يَتَكَرَّرَ ثَانِيَةً؛ إِذْ كَانَ آخِرُ مَا يُرِيدُهُ هُوَ إِثَارَةُ غَضَبِ سَيِّدِهِ.

كَانَ فيكس خَلْفَهُمَا بِخُطْوَتَيْنِ، وَكَانَ عَلَى وَشْكِ صُعُودِ الْقِطَارِ عِنْدَمَا غَيَّرَ رَأْيَهُ فَجْأَةً؛ إِذْ إِنَّهُ قَدْ سَمِعَ كُلَّ كَلِمَةٍ وَعَلِمَ بِمَا حَدَثَ بِالضَّبْطِ لباسبارتو، فَهَمَسَ لِنَفْسِهِ قَائِلًا: «جَرِيمَةٌ ارْتُكِبَتْ عَلَى الْأَرَاضِي الْهِنْدِيَّةِ!» وَهُوَ يُفَكِّرُ فِي الْخَطَأِ الَّذِي ارْتَكَبَهُ باسبارتو بِدُخُولِهِ الْمَعْبَدَ، وَقَالَ: «هَكَذَا سَأَقْبِضُ عَلَيْهِمَا!»

أَرْسَلَ فيكس بَرْقِيَّةً إِلَى كلكتا يُخْبِرُ الشُّرْطَةَ هُنَاكَ بِمَا حَدَثَ فِي الْمَعْبَدِ، وَيُخْبِرُهُمْ بِوُصُولِ السَّيِّدِ فوج وباسبارتو إِلَى الْمَدِينَةِ، ثُمَّ حَجَزَ لِنَفْسِهِ تَذْكِرَةً عَلَى الْقِطَارِ التَّالِي وَهُوَ حَرِيصٌ كُلَّ الْحِرْصِ عَلَى أَنْ يَصِلَ إِلَى كلكتا قَبْلَهُمَا.

الفصل السادس

فيلياس فوج عَلَى ظَهْرِ فِيلٍ

انْطَلَقَتْ صَافِرَةُ الْقِطَارِ مُعْلِنَةً مُغَادَرَةَ الْمَحَطَّةِ فِي الْمَوْعِدِ الْمُحَدَّدِ، وَكَانَ مَعَ باسبارتو وفيلياس فِي الْكَابِينَةِ الَّتِي يَجْلِسَانِ فِيهَا رَجُلٌ وَاحِدٌ يُدْعَى السِّيرْ فرانسيس كرومرتي، وَهُوَ رَجُلٌ طَوِيلُ الْقَامَةِ ذُو بَشَرَةٍ بَيْضَاءَ وَيَبْلُغُ الْخَمْسِينَ مِنَ الْعُمْرِ. وَكَانَ السِّيرْ فرانسيس فِي طَرِيقِهِ لِلانْضِمَامِ إِلَى كَتِيبَتِهِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ الْمُتَمَرْكِزَةِ فِي مَدِينَةِ بيناريس، وَهِيَ مَدِينَةٌ كُبْرَى أُخْرَى فِي الْهِنْدِ.

تَقَابَلَ فيلياس وَالسِّيرْ فرانسيس عَلَى مَتْنِ «منغوليا» حَيْثُ لَعِبَا الْوَرَقَ مَعًا، وَكَانَ السِّيرْ فرانسيس — وَهُوَ جِنرَالٌ فِي الْجَيْشِ الْبِرِيطَانِي — يَرَى أَنَّ فيلياس مَجْنُونٌ؛ لِأَنَّهُ يُحَاوِلُ السَّفَرَ حَوْلَ الْعَالَمِ فِي هَذَا الْوَقْتِ الْقَصِيرِ، بَلْ وَكَانَ يَرَى أَنَّ فيلياس شَخْصٌ غَرِيبٌ حَقًّا.

وَبَعْدَ مُرُورِ سَاعَاتٍ طَوِيلَةٍ مِنْ رِحْلَةِ الْقِطَارِ، قَالَ السِّيرْ فرانسيس: «لَوْ كَانَ هَذَا قَبْلَ عِدَّةِ سَنَوَاتٍ مَضَتْ يَا فيلياس، لَكُنْتَ عَلِقْتَ هُنَا وَخَسِرْتَ رِهَانَكَ.»

سَأَلَ فيلياس: «كَيْفَ ذَلِكَ؟»

– «كَانَ الْقِطَارُ يَتَوَقَّفُ عِنْدَ قَاعِدَةِ تِلْكَ الْجِبَالِ، وَكَانَ عَلَى الرُّكَّابِ امْتِطَاءُ الْمُهُورِ لِلْوُصُولِ إِلَى الْجَانِبِ الْآخَرِ.»

قَالَ فيلياس: «آهْ، حَسَنًا، كُنْتُ سَأَحْرِصُ عَلَى التَّخْطِيطِ لِذَلِكَ، وَكَانَتِ الْأُمُورُ سَتَسِيرُ عَلَى خَيْرِ مَا يُرَامُ.»

وَبَيْنَمَا كَانَ الرَّجُلَانِ يَتَجَاذَبَانِ أَطْرَافَ الْحَدِيثِ، نَامَ باسبارتو بِهُدُوءٍ وَهُوَ يَتَدَثَّرُ بِبَطَّانِيَّةٍ. وَأَخِيرًا تَوَقَّفَ الرَّجُلَانِ عَنِ الْكَلَامِ وَبَقِيَا صَامِتَيْنِ، وَشَقَّ الْقِطَارُ طَرِيقَهُ أَثْنَاءَ اللَّيْلِ، وَبِحُلُولِ النَّهَارِ كَانَ قَدْ قَطَعَ الْمَسَافَةَ بَيْنَ الْجِبَالِ، الَّتِي أَصْبَحَتْ خَلْفَهُمَا.

كَانَتْ مَحَطَّتُهُمُ الْأُولَى بَعْدَ مُغَادَرَةِ بومباي هِيَ برهامبور، وَعِنْدَمَا تَوَقَّفَ الْقِطَارُ لِلتَّزَوُّدِ بِالْمُؤَنِ وَالْفَحْمِ، اشْتَرَى باسبارتو لِنَفْسِهِ حِذَاءً جَدِيدًا؛ إِذْ إِنَّهُ قَدْ فَقَدَ حِذَاءَهُ فِي الشِّجَارِ فِي الْمَعْبَدِ. وَكَانَ حِذَاؤُهُ الْجَدِيدُ عِبَارَةً عَنْ خُفٍّ هِنْدِيٍّ مُزَيَّنٍ بِلَآلِئَ غَيْرِ أَصْلِيَّةٍ، وَلَمْ يَمْتَلِكْ باسبارتو قَطُّ شَيْئًا بِهَذَا الْجَمَالِ.

وَعِنْدَمَا بَدَأَ الْقِطَارُ يَسْتَأْنِفُ رِحْلَتَهُ، جَلَسَ باسبارتو مَرَّةً أُخْرَى يَتَأَمَّلُ مِنَ النَّافِذَةِ، وَكَانَ مَشْدُوهًا لِأَنَّهُ فِي الْهِنْدِ دُونَ غَيْرِهَا مِنَ الْأَمَاكِنِ؛ وَفِي الْوَاقِعِ كَانَ بَدَأَ يُغَيِّرُ فِكْرَتَهُ عَنِ الرِّحْلَةِ الْعَاصِفَةِ، بَلْ وَبَدَأَ يَسْتَمْتِعُ بِهَا.

وَفَجْأَةً تَوَقَّفَ الْقِطَارُ وَصَاحَ مُحَصِّلُ الْقِطَارِ: «عَلَى جَمِيعِ الرُّكَّابِ مُغَادَرَةُ الْقِطَارِ هُنَا!»

نَظَرَ فيلياس إِلَى السِّيرْ فرانسيس، وَلَكِنَّهُ هُوَ أَيْضًا لَمْ يَكُنْ يُدْرِكُ سَبَبَ تَوَقُّفِهِمْ، وَبِالْخَارِجِ كَانَتْ هُنَاكَ قَرْيَةٌ صَغِيرَةٌ مُحَاطَةٌ بِغَابَاتٍ مِنْ أَشْجَارِ النَّخِيلِ. انْدَفَعَ باسبارتو خَارِجَ الْقِطَارِ لِيَرَى مَا يَحْدُثُ.

وَعِنْدَ عَوْدَتِهِ قَالَ: «سَيِّدِي! لَا يُوجَدُ الْمَزِيدُ مِنَ الْقُضْبَانِ!»

سَأَلَهُ السِّيرْ فرانسيس: «مَاذَا تَعْنِي؟»

أَجَابَ باسبارتو: «أَقْصِدُ أَنَّ الْقِطَارَ لَنْ يَتَمَكَّنَ مِنَ السَّفَرِ لِأَبْعَدَ مِنْ هُنَا.»

خَرَجَ الجِنِرَالُ وَلَحِقَ بِهِ فيلياس فوج وَذَهَبَا لِيَتَحَدَّثَا مَعَ مُحَصِّلِ الْقِطَارِ.

سَأَلَ السِّيرْ فرانسيس: «مَاذَا يَحْدُثُ؟»

– «لَمْ يَنْتَهِ إِنْشَاءُ السِّكَّةِ الْحَدِيدِيَّةِ بَعْدُ، لَا تَزَالُ هُنَاكَ مَسَافَةُ خَمْسِينَ مِيلًا لَمْ يَنْتَهِ إِنْشَاؤُهَا، يَتَعَيَّنُ عَلَيْكُمُ اسْتِكْمَالُ طَرِيقِكُمْ وَحْدَكُمْ مِنْ هُنَا.»

وَبَعْدَ هَذِهِ الْجُمْلَةِ، تَرَكَ الْمُحَصِّلُ الرِّجَالَ الثَّلَاثَةَ، وَلَمْ يَكُنْ أَيٌّ مِنْهُمْ يَعْلَمُ مَاذَا سَيَفْعَلُ بَعْدُ.

لَقَدْ كَانَتْ كُلُّ الصُّحُفِ اللَّنْدَنِيَّةِ مُخْطِئَةً؛ حَيْثُ إِنَّ السِّكَكَ الْحَدِيدِيَّةَ الَّتِي تَقْطَعُ الْهِنْدَ كَانَتْ عَلَى وَشْكِ الِانْتِهَاءِ.

قَالَ السِّيرْ فرانسيس: «بِالتَّأْكِيدِ، سَتُمَثِّلُ هَذِهِ مُشْكِلَةً لَكَ؛ إِذْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ الْوُصُولَ إِلَى كلكتا الْآنَ.»

قَالَ فيلياس: «بِالْعَكْسِ، لَدَيَّ عِدَّةُ أَيَّامٍ إِضَافِيَّةٍ؛ فَالْيَوْمَ مَا زَالَ الثَّانِيَ وَالْعِشْرِينَ مِنْ أُكْتُوبَرَ وَلَنْ تُغَادِرَ الْبَاخِرَةُ إِلَى هونج كونج إِلَّا يَوْمَ الْخَامِسِ وَالْعِشْرِينَ، فَمَا زَالَ لَدَيْنَا مُتَّسَعٌ مِنَ الْوَقْتِ لِلْوُصُولِ إِلَى كلكتا.»

قَرَّرَ فيلياس: «سَنَقْطَعُ الْمَسَافَةَ سَيْرًا عَلَى الْأَقْدَامِ.»

نَظَرَ باسبارتو إِلَى حِذَائِهِ الْجَدِيدِ، وَالَّذِي لَنْ يَصْمُدَ لِمَسَافَةِ خَمْسِينَ مِيلًا مِنَ السَّيْرِ، وَنَظَرَ حَوْلَهُ لِدَقِيقَةٍ ثُمَّ قَالَ: «أَعْتَقِدُ أَنَّنِي وَجَدْتُ طَرِيقًا آخَرَ يَا سَيِّدِي!»

قَالَ فيلياس: «مَا هُوَ يَا باسبارتو؟»

أَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى كُوخٍ صَغِيرٍ يَبْعُدُ عِدَّةَ يَارْدَاتٍ عَنِ الْمَحَطَّةِ وَقَالَ: «فِيلٌ!» وكَانَ ثَمَّةَ فِيلٌ يَقِفُ هُنَاكَ بِالْفِعْلِ، وَسَارَ الرِّجَالُ الثَّلَاثَةُ إِلَى الْكُوخِ وَطَرَقُوا الْبَابَ، فَخَرَجَ رَجُلٌ هِنْدِيٌّ وَأَرَاهُمْ «كيوني»، وَكَانَ هَذَا هُوَ اسْمَ الْفِيلَةِ.

حَاوَلَ فيلياس تَأْجِيرَ الْفِيلَةِ لِإِيصَالِهِمْ إِلَى مَدِينَةِ «الله أباد»، حَيْثُ تَسْتَأْنِفُ السِّكَّةُ الْحَدِيدِيَّةُ رِحْلَتَهَا، وَلَكِنَّ الْمَالِكَ رَفَضَ، فَعَرَضَ عَلَيْهِ مَبْلَغًا أَكْبَرَ مِنَ الْمَالِ، لَكِنَّهُ أَصَرَّ عَلَى الرَّفْضِ. وَبَعْدَ عِدَّةِ دَقَائِقَ مِنَ الْمُسَاوَمَةِ عَرَضَ فيلياس مَبْلَغَ سِتِّمِائَةِ جُنَيْهٍ، وَلَكِنَّ الْإِجَابَةَ كَانَتْ لَا تَزَالُ بِالرَّفْضِ! ثُمَّ حَاوَلَ شِرَاءَ كيوني مُقَابِلَ أَلْفِ جُنَيْهٍ، وَلَمْ يَلْقَ عَرْضُهُ قَبُولًا كَذَلِكَ! فِي النِّهَايَةِ اضْطُرَّ فيلياس لِعَرْضِ شِرَائِهَا مُقَابِلَ أَلْفَيْ جُنَيْهٍ حَتَّى يُوَافِقَ الْمَالِكُ.

قَالَ باسبارتو: «أَلْفَا جُنَيْهٍ مِنْ أَجْلِ فِيلَةٍ!» وَتَعَجَّبَ لِأَنَّ سَيِّدَهُ كَانَ عَلَى اسْتِعْدَادٍ لِإِنْفَاقِ كُلِّ هَذِهِ الْأَمْوَالِ!

لَكِنْ بَعْدَ ذَلِكَ تَعَيَّنَ عَلَيْهِمُ الْعُثُورُ عَلَى مُرْشِدٍ، وَوَجَدُوا فِي الْمَدِينَةِ شَابًّا لَطِيفًا يُدْعَى عَلِيًّا فَاسْتَأْجَرُوهُ عَلَى الْفَوْرِ. كَمَا اشْتَرَوُا الْمُؤَنَ كَذَلِكَ وَأَصْبَحُوا عَلَى اسْتِعْدَادٍ لِلرَّحِيلِ. جَلَسَ فيلياس وَالسِّيرْ فرانسيس عَلَى كُرْسِيَّيْنِ عَلَى جَانِبَيِ الْفِيلَةِ — يُطْلَقُ عَلَيْهِمَا هَوْدَجٌ — بَيْنَمَا جَلَسَ باسبارتو بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ، عَلَى ظَهْرِ كيوني، وَجَلَسَ مُرْشِدُهُمْ عَلَى رَقَبَتِهَا، وَبَدَءُوا رِحْلَتَهُمْ مِنَ الْقَرْيَةِ فِي السَّاعَةِ التَّاسِعَةِ، وَبَدَءُوا يَشُقُّونَ طَرِيقَهُمْ عَبْرَ غَابَةِ النَّخِيلِ الْمُحِيطَةِ بِهِمْ.

الفصل السابع

مُغَامَرَةُ فيلياس فوج وباسبارتو وَالسِّيرْ فرانسيس

كَانَتِ الْفِيلَةُ تَقْذِفُ السِّيرْ فرانسيس وفيلياس يَمْنَةً وَيَسْرَةً وَهِيَ تَشُقُّ طَرِيقَهَا رَكْضًا فِي الْغَابَةِ وَهُمَا يَجْلِسَانِ فِي وَضْعٍ غَيْرِ مُرِيحٍ فِي الْهَوْدَجِ. وَقَدْ أَخَبَرَهُمْ عَلِيٌّ أَنَّهُمْ يُمْكِنُهُمْ تَوْفِيرُ الْكَثِيرِ مِنَ الْوَقْتِ إِذَا سَلَكُوا طَرِيقًا مُخْتَصَرًا، فَوَافَقُوا، وَلَكِنَّ ذَلِكَ الطَّرِيقَ كَانَ أَكْثَرَ وُعُورَةً مِنَ الطَّرِيقِ الْعَادِيِّ، وَكَانَ باسبارتو يَثِبُ كَالْكُرَةِ عَلَى ظَهْرِ الْفِيلِ، وَرُبَّمَا كَانَ ذَلِكَ مُؤْلِمًا، وَلَكِنَّهُ كَانَ يَسْتَمْتِعُ بِالرِّحْلَةِ وَيَشْعُرُ كَأَنَّهُ مُهَرِّجٌ يَقْفِزُ فَوْقَ قَنْطَرَةٍ.

مَرَّ الرِّجَالُ عَبْرَ غَابَةٍ كَثِيفَةٍ ثُمَّ عَبْرَ حُقُولٍ جَافَّةٍ، وَرَأَوْا بَعْضَ الْحَيَوَانَاتِ — وَأَكْثَرُ مَا رَأَوْهُ كَانَ الْقُرُودَ — وَقَدْ أَعْجَبَتْ باسبارتو كَثِيرًا. وَكَانَ الرُّكَّابُ يَشْعُرُونَ بِبَعْضِ الْخَوْفِ مِنَ السَّفَرِ عَبْرَ تِلْكَ الْمِنْطَقَةِ الْوَعْرَةِ فِي طَرِيقِهِمْ إِلَى مَدِينَةِ «الله أباد»؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يُدْرِكُونَ أَنَّ هُنَاكَ قُطَّاعَ طُرُقٍ يَحْكُمُونَ هَذِهِ الْأَرَاضِيَ، وَلَمْ يَكُنْ أَيٌّ مِنْهُمْ يَرْغَبُ فِي مُوَاجَهَةِ الْمَتَاعِبِ.

وَبِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّ باسبارتو أَحَبَّ وُجُودَهُ عَلَى ظَهْرِ الْفِيلَةِ، فَقَدْ كَانَ يَتَسَاءَلُ عَمَّا سَيَفْعَلُهُ السَّيِّدُ بكيوني عَقِبَ وُصُولِهِمْ إِلَى «الله أباد»، وَظَلَّ يُفَكِّرُ فِي ذَلِكَ لِفَتْرَةٍ طَوِيلَةٍ وَهُمْ يَشُقُّونَ طَرِيقَهُمْ فِي عُجَالَةٍ.

وَمَعَ حُلُولِ الْمَسَاءِ، كَانَ الرِّجَالُ قَدْ قَطَعُوا نِصْفَ الْمَسَافَةِ إِلَى مَحَطَّةِ السِّكَّةِ الْحَدِيدِيَّةِ الْأُخْرَى، وَكَانَتْ لَيْلَةً بَارِدَةً؛ فَتَوَقَّفُوا عِنْدَ كُوخٍ مُتَهَدِّمٍ حَيْثُ أَشْعَلَ مُرْشِدُهُمْ نَارًا

لِلتَّدْفِئَةِ، وَنَامَتْ كيوني خَارِجَ الْكُوخِ مُسْتَنِدَةً إِلَى شَجَرَةٍ كَبِيرَةٍ، وَسُرْعَانَ مَا غَطُّوا جَمِيعًا فِي سُبَاتٍ عَمِيقٍ حَتَّى أَصْبَحَ صَوْتُ شَخِيرِهِمْ مَسْمُوعًا.

وَبِحُلُولِ السَّادِسَةِ مِنْ صَبَاحِ الْيَوْمِ التَّالِي كَانُوا يَشُقُّونَ طَرِيقَهُمْ مَرَّةً أُخْرَى، وَأَرَادَ عَلِيٌّ تَوْصِيلَهُمْ إِلَى مَحَطَّةِ السِّكَّةِ الْحَدِيدِيَّةِ فِي مَسَاءِ ذَلِكَ الْيَوْمِ، وَكَانَ ذَلِكَ يَعْنِي أَنَّ فيلياس لَنْ يَخْسَرَ سِوَى الْقَلِيلِ مِنَ الْوَقْتِ الَّذِي كَسَبَهُ مُنْذُ بَدْءِ رِحْلَتِهِ. تَوَقَّفَ الرِّجَالُ تَحْتَ شَجَرَةِ مَوْزٍ لِتَنَاوُلِ وَجْبَةٍ خَفِيفَةٍ، حَيْثُ لَمْ يَكُنْ أَمَامَهُمْ سِوَى مَسَافَةِ اثْنَيْ عَشَرَ مِيلًا فَقَطْ لِيَقْطَعُوهَا.

بَعْدَ الرَّاحَةِ، قَادَ عَلِيٌّ كيوني إِلَى الْغَابَةِ مَرَّةً أُخْرَى، وَكَانُوا حَتَّى ذَلِكَ الْوَقْتِ قَدْ تَجَنَّبُوا كُلَّ إِشَارَاتِ قَاطِعِي الطُّرُقِ وَأَرَادُوا الِاسْتِمْرَارَ عَلَى هَذَا الْمِنْوَالِ.

وَفَجْأَةً تَوَقَّفَتْ كيوني.

فَسَأَلَ السِّيرْ فرانسيس وَهُوَ يُخْرِجُ رَأْسَهُ مِنَ الْهَوْدَجِ: «مَاذَا حَدَثَ؟» ثُمَّ سَمِعَ الرِّجَالُ أَصْوَاتًا عَالِيَةً قَادِمَةً عَبْرَ الْغَابَةِ.

فَقَالَ عَلِيٌّ: «أَسْرِعُوا، يَجِبُ أَنْ نَخْتَبِئَ.»

ثُمَّ قَادَ كيوني خَارِجَ الطَّرِيقِ حَتَّى لَا يَرَاهُمُ الْقَادِمُونَ، وَاقْتَرَبَتْ أَصْوَاتُ الْمُعَدَّاتِ وَالضَّوْضَاءُ أَكْثَرَ فَأَكْثَرَ، ثُمَّ ظَهَرَ مَجْمُوعَةٌ مِنَ الرِّجَالِ يَرْتَدُونَ الزِّيَّ الْمَحَلِّيَّ وَيَجُرُّونَ عَرَبَةً عَلَيْهَا تِمْثَالٌ قَبِيحٌ.

هَمَسَ السِّيرْ فرانسيس: «هَلْ تَعْتَقِدُ أَنَّهُمْ رَأَوْنَا؟» فَأَشَارَ عَلِيٌّ لَهُ بِيَدِهِ أَنْ يَصْمُتَ.

رَقَصَ بَعْضُ الرِّجَالِ حَوْلَ التِّمْثَالِ، وَكَانَ الْعَدِيدُ مِنْهُمْ يَرْتَدُونَ أَثْوَابًا طَوِيلَةً، وَكَانَتْ مَجْمُوعَةٌ أُخْرَى تَجُرُّ امْرَأَةً خَلْفَهَا، وَكَانَتْ تَسْقُطُ فِي كُلِّ خُطْوَةٍ تَخْطُوهَا تَقْرِيبًا، وَكَانَتْ شَابَّةً حَسْنَاءَ مُرْتَدِيَةً جَوَاهِرَ فِي يَدَيْهَا وَقَدَمَيْهَا وَرَقَبَتِهَا وَذِرَاعَيْهَا وَسَاقَيْهَا، وَكَانَ الْحُرَّاسُ الَّذِينَ يَتْبَعُونَهَا يَحْمِلُونَ سُيُوفًا عِمْلَاقَةً حَادَّةً.

هَمَسَ السِّيرْ فرانسيس: «أَعْتَقِدُ أَنَّهُمْ سَيُؤْذُونَ تِلْكَ الْفَتَاةَ الْمِسْكِينَةَ.»

فَأَجَابَهُ فيلياس: «أَعْتَقِدُ أَنَّكَ عَلَى حَقٍّ. إِنَّهَا أَمِيرَةٌ، انْظُرُوا إِلَى مَا تَرْتَدِيهِ. لَدَيَّ اثْنَتَا عَشْرَةَ سَاعَةً زَائِدَةً مِنَ الْوَقْتِ، يَجِبُ عَلَيْنَا إِنْقَاذُهَا!»

قَالَ السِّيرْ فرانسيس: «مُوَافِقٌ!»

وَأَضَافَ باسبارتو: «مُوَافِقٌ!»

فَقَالَ عَلِيٌّ: «إِذَا أَمْسَكُوا بِكُمْ، فَإِنَّهُمْ حَتْمًا سَيُعَذِّبُونَكُمْ، وَلَكِنِّي سَأُسَاعِدُكُمْ، فَتِلْكَ الْفَتَاةُ الَّتِي يَأْسِرُونَهَا هِيَ ابْنَةُ تَاجِرٍ ثَرِيٍّ فِي بومباي، وَهِيَ فَتَاةٌ مَشْهُورَةٌ وَتُدْعَى عودا.»

قَالَ فيلياس: «هَذَا يُفَسِّرُ الْأَمْرَ، لَقَدْ أَسَرُوهَا لِلْحُصُولِ عَلَى فِدْيَةٍ مِنْ أَهْلِهَا لِإِعَادَتِهَا! دَعُونَا نُفَكِّرْ فِي خُطَّةٍ، وَمِنَ الْأَفْضَلِ الِانْتِظَارُ حَتَّى هُبُوطِ اللَّيْلِ.»

أَوْمَأَ الْجَمِيعُ، وَأَضَافَ السِّيرْ فرانسيس: «يَجِبُ عَلَيْنَا نَقْلُ مُخَيَّمِنَا بِالْقُرْبِ مِنْهُمْ، فَهَكَذَا يُمْكِنُ لَنَا رَصْدُ مَا يَفْعَلُونَهُ.»

رَبَطُوا كيوني ثُمَّ اقْتَرَبُوا مِنَ الْمُخَيَّمِ، وَكَانَتْ هُنَاكَ نِيرَانٌ كَثِيفَةٌ تَشْتَعِلُ، وَسَمِعُوا صَخَبًا كَبِيرًا. خَطَّطَ الرِّجَالُ لِشَقِّ جِدَارِ حَائِطِ الْكُوخِ حَيْثُ كَانَتِ الْفَتَاةُ مُحْتَجَزَةً، ثُمَّ خَطْفِهَا مِنْ هُنَاكَ، وَانْتَظَرُوا حَتَّى حَلَّ الظَّلَامُ وَنَامَ الْحُرَّاسُ، ثُمَّ تَسَلَّلَ عَلِيٌّ وباسبارتو وَبَدَآ فِي تَحْطِيمِ الْجِدَارِ، بَيْنَمَا كَانَ السِّيرْ فرانسيس وفيلياس يُرَاقِبَانِ مِنْ خَلْفِ شَجَرَةٍ قَرِيبَةٍ.

وَفَجْأَةً هَمَسَ فيلياس: «يَا إِلَهِي! لَقَدِ اسْتَيْقَظَ الْحَارِسُ! يَجِبُ أَنْ نَفْعَلَ شَيْئًا قَبْلَ أَنْ يَعْثُرَ عَلَى باسبارتو.»

تَسَلَّلَ الرَّجُلَانِ بِهُدُوءٍ خَلْفَ الْحَارِسِ وَضَرَبَاهُ عَلَى رَأْسِهِ، وَلَمْ يَكُنْ بِنِيَّتِهِمَا إِلْحَاقُ أَذًى شَدِيدٍ بِهِ، فَقَطْ أَرَادُوا إِبْقَاءَهُ نَائِمًا. وَانْضَمَّ السِّيرْ فرانسيس وفيلياس إِلَى باسبارتو وَعَلِيٍّ لِشَقِّ الْحَائِطِ، وَفِي النِّهَايَةِ نَجَحُوا فِي عُبُورِهِ!

كَانَتِ الْفَتَاةُ الْمِسْكِينَةُ مُلْقَاةً عَلَى السَّرِيرِ وَتَبْدُو كَالْمَيِّتَةِ، حَمَلَهَا باسبارتو بِحَذَرٍ، وقَالَ فيلياس: «أَسْرِعْ! عَلَيْنَا أَنْ نَخْرُجَ مِنْ هُنَا حَالًا!»

زَحَفَ الرِّجَالُ عَبْرَ التَّجْوِيفِ الصَّغِيرِ فِي الْجِدَارِ، وَرَكَضُوا بِسُرْعَةٍ عَائِدِينَ إِلَى كيوني، وَلَكِنَّ قُطَّاعَ الطَّرِيقِ رَأَوْهُمْ! فَطَارَدُوهُمْ عَبْرَ الْغَابَةِ، وَانْهَالَ سَيْلٌ مِنَ الْأَسْهُمِ عَلَيْهِمْ، وَرَكَضَ عَلِيٌّ مُبَاشَرَةً بِأَقْصَى سُرْعَةٍ فَكَانَ يُرِيدُ أَنْ يُسَاعِدَ الْجَمِيعَ فِي الصُّعُودِ عَلَى ظَهْرِ الْفِيلَةِ، وَسُرْعَانَ مَا صَعِدُوا عَلَى ظَهْرِ كيوني الَّتِي انْطَلَقَتْ تَخْتَرِقُ الْغَابَةَ.

صَاحَ السِّيرْ فرانسيس: «لَقَدْ نَجَحْنَا! لَقَدْ نَجَحْنَا! أَحْسَنْتُمْ جَمِيعًا! أَحْسَنْتُمْ!»

وَضَعَ فيلياس عودا بِأَمَانٍ فِي أَحَدِ الْهَوْدَجَيْنِ وَكَانَتْ لَا تَزَالُ تَغُطُّ فِي سُبَاتٍ عَمِيقٍ، بَلْ إِنَّهَا لَمْ تَسْتَيْقِظْ قَطُّ! ثُمَّ انْضَمَّ إِلَى باسبارتو عَلَى ظَهْرِ كيوني، بَيْنَمَا بَقِيَ السِّيرْ فرانسيس فِي الْهَوْدَجِ الْآخَرِ.

الفصل الثامن

رِحْلَةٌ عَبْرَ نَهْرِ الجانج

تَقَدَّمَ الْفَرِيقُ بِسُرْعَةٍ فَائِقَةٍ فِي اتِّجَاهِ «الله أباد»، حَتَّى إِنَّهُمْ وَصَلُوا إِلَى مَحَطَّةِ الْقِطَارِ مَعَ وَقْتٍ مُبَكِّرٍ مِنَ الصَّبَاحِ.

وَفَوْرَ وُصُولِهِمْ إِلَى مَدِينَةِ «الله أباد»، طَلَبَ فيلياس مِنْ باسبارتو تَنْفِيذَ بَعْضِ الْمَهَامِّ، وَكَانَ باسبارتو سَعِيدًا بِذَلِكَ، هَذَا بِجَانِبِ أَنَّهُ كَانَ شَغُوفًا بِاسْتِكْشَافِ الْمَدِينَةِ.

وَعِنْدَمَا عَادَ باسبارتو، كَانَ الْوَقْتُ قَدْ حَانَ لِوَدَاعِ عَلِيٍّ؛ فَدَفَعَ لَهُ فيلياس نُقُودَهُ وَقَالَ: «عَلِيٌّ، لَقَدْ كُنْتَ خَيْرَ عَوْنٍ لَنَا، هَلْ تَوَدُّ الِاحْتِفَاظَ بِكيوني؟»

أَجَابَ عَلِيٌّ: «سَيِّدِي! هَلْ أَنْتَ مُتَأَكِّدٌ؟ إِنَّهَا تُقَدَّرُ بِثَرْوَةٍ. هَذَا كَرَمٌ كَبِيرٌ مِنْكَ! إِنَّنِي لَا أُصَدِّقُ ذَلِكَ!»

قَالَ فيلياس: «إِنَّكَ تَسْتَحِقُّ هَذِهِ الْهَدِيَّةَ.»

قَالَ باسبارتو: «يَا إِلَهِي! إِنَّنِي سَعِيدٌ أَنَّكَ سَوْفَ تَأْخُذُهَا يَا عَلِيُّ؛ فَكيوني سَتَكُونُ صَدِيقَةً شُجَاعَةً وَمُخْلِصَةً.»

ثُمَّ رَبَّتَ باسبارتو عَلَى خُرْطُومِ كيوني، فَحَمَلَتْهُ كيوني بِخُرْطُومِهَا عَالِيًا فِي الْهَوَاءِ، فَضَحِكَ الْخَادِمُ وَرَبَّتَ عَلَى رَأْسِ كيوني الَّتِي أَعَادَتْهُ بِرِفْقٍ إِلَى الْأَرْضِ مَرَّةً أُخْرَى.

انْطَلَقَتْ صَافِرَةُ الْقِطَارِ مُعْلِنَةً أَنَّهُ حَانَ وَقْتُ الصُّعُودِ إِلَى الْقِطَارِ. حَمَلَ السِّيرْ فرانسيس عودا وَوَضَعَهَا بِحَذَرٍ فِي عَرَبَةِ الْقِطَارِ، وَسُرْعَانَ مَا كَانَ الْقِطَارُ يَشُقُّ طَرِيقَهُ مُسْرِعًا نَحْوَ بيناريس. وَبَعْدَ بِضْعِ سَاعَاتٍ، اسْتَيْقَظَتْ عودا وَكَانَتْ فِي حَالَةٍ مِنَ الذُّهُولِ

وَالْفَزَعِ، كَمَا شَعَرَتْ بِالدَّهْشَةِ لِأَنَّهَا عَلَى مَتْنِ قِطَارٍ سَرِيعٍ وَلَيْسَتْ مُقَيَّدَةً فِي الْكُوخِ وَمُحَاطَةً بِقُطَّاعِ الطُّرُقِ.

سَأَلَتْ: «أَيْنَ أَنَا؟»

فَأَجَابَهَا فيلياس: «أَنْتِ فِي أَمَانٍ الْآنَ يَا عَزِيزَتِي، لَقَدْ أَنْقَذْنَاكِ مِنْ أُولَئِكَ الْأَشْرَارِ وَنَأْخُذُكِ مَعَنَا إِلَى بيناريس. أَنَا فيلياس فوج وَهَذَا خَادِمِي باسبارتو وَصَدِيقُنَا السِّيرْ فرانسيس.»

شَكَرَتْهُمْ جَمِيعًا لِمُسَاعَدَتِهَا وَإِنْقَاذِ حيَاتِهَا، وَقَالَتْ إِنَّهَا لَنْ تَسْتَطِيعَ أَبَدًا رَدَّ جَمِيلِهِمْ لِكُلِّ مَا فَعَلُوهُ مِنْ أَجْلِهَا.

قَالَ فيلياس: «لَا تَقُولِي هَذَا، هَذَا مِنْ دَوَاعِي سُرُورِنَا.»

– «لَقَدْ قَتَلَ قُطَّاعُ الطُّرُقِ عَائِلَتِي كُلَّهَا، وَكَانُوا سَيَقْتُلُونَنِي أَنَا أَيْضًا لَوْلَا تَدَخُّلُكُمْ لِإِنْقَاذِي.»

– «هَذَا يَعْنِي أَنَّ حَيَاتَكِ سَتَكُونُ مُعَرَّضَةً لِلْخَطَرِ دَائِمًا إِذَا بَقِيتِي هُنَا. هَلْ تَوَدِّينَ مُرَافَقَتَنَا إِلَى هونج كونج، إِنَّنَا نَتَّجِهُ إِلَى هُنَاكَ؟»

قَالَت عودا بِهُدُوءٍ: «سَأَكُونُ مُمْتَنَّةً لِذَلِكَ، شُكْرًا مَرَّةً أُخْرَى عَلَى كُلِّ مَا فَعَلْتُمُوهُ مِنْ أَجْلِي.»

عِنْدَمَا وَصَلَ الْقِطَارُ إِلَى مَدِينَةِ بيناريس، وَدَّعَ الْمُسَافِرُونَ السِّيرْ فرانسيس الَّذِي تَمَنَّى لَهُمُ النَّجَاحَ وَالتَّوْفِيقَ، وَقَالَ إِنَّهُ يَتَمَنَّى رُؤْيَتَهُمْ مَرَّةً أُخْرَى قَرِيبًا.

الفصل التاسع

فيلياس فوج يُنْفِقُ مَبالِغَ طَائِلَةً

وَصَلَ الْقِطَارُ إِلَى الْمَحَطَّةِ فِي كلكتا، وَنَزَلَ الْمُسَافِرُونَ مِنْ عَلَى مَتْنِهِ، وَأَرَادَ فيلياس التَّوَجُّهَ مُبَاشَرَةً إِلَى الْبَاخِرَةِ الْمُتَّجِهَةِ إِلَى هونج كونج حَتَّى يَصْعَدَ عَلَى مَتْنِهَا وَهُوَ لَا يَزَالُ لَدَيْهِ مُتَّسَعٌ مِنَ الْوَقْتِ، وَكَانَ لَدَيْهِمْ بِضْعُ سَاعَاتٍ حَتَّى تَحِينَ لَحْظَةُ مُغَادَرَةِ السَّفِينَةِ. وَأَرَادَ فيلياس أَنْ يَتَأَكَّدَ مِنْ أَنَّ عودا عَلَى مَا يُرَامُ وَلَدَيْهَا كُلُّ مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ؛ وَبِالطَّبْعِ كَانَ ذَلِكَ يَعْنِي أَنَّ باسبارتو سَيَقُومُ بِبَعْضِ الْمَهَامِّ.

وَبِمُجَرَّدِ أَنْ سَاعَدَ فيلياس عودا عَلَى النُّزُولِ مِنَ الْقِطَارِ، أَوْقَفَهُ شُرْطِيٌّ وَسَأَلَهُ: «هَلْ أَنْتَ السَّيِّدُ فيلياس فوج؟»

أَجَابَ فيلياس: «نَعَمْ.»

ثُمَّ أَشَارَ الشُّرْطِيُّ إِلَى باسبارتو: «هَلْ هَذَا الرَّجُلُ هُوَ خَادِمُكَ؟»

– «نَعَمْ.»

– «إِذَنْ، عَلَيْكُمَا أَنْتُمَا الِاثْنَيْنِ الْقُدُومُ مَعِي.»

تَوَجَّهَ الشُّرْطِيُّ إِلَى عَرَبَةٍ وَفَتَحَ الْبَابَ لَهُمَا، فَقَالَ فيلياس لعودا أَنْ تَأْتِيَ مَعَهُمَا؛ لِأَنَّهُ لَمْ يُرِدْ أَنْ تَظَلَّ بِمُفْرَدِهَا.

بَعْدَ رِحْلَةٍ صَامِتَةٍ اسْتَمَرَّتْ عِشْرِينَ دَقِيقَةً، وَصَلُوا إِلَى مَنْزِلٍ صَغِيرٍ، وَفَتَحَ الشُّرْطِيُّ بَابَ الْعَرَبَةِ، وَقَالَ لَهُمْ وَهُمْ يَخْرُجُونَ مِنْهَا: «اتْبَعُونِي.»

وَقَادَ الثَّلَاثَةَ إِلَى غُرْفَةٍ صَغِيرَةٍ بِهَا قُضْبَانٌ عَلَى النَّافِذَةِ، وَقَالَ: «سَوْفَ تَمْثُلُونَ أَمَامَ الْقَاضِي عباديا فِي تَمَامِ الثَّامِنَةِ وَالنِّصْفِ.»

تَعَجَّبَ فيلياس: «أَنَحْنُ سُجَنَاءُ؟ مَا هَذَا الْهُرَاءُ! هُنَاكَ خَطَأٌ مَا.» ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَى عودا وباسبارتو قَائِلًا: «لَا تَقْلَقَا، فَسَنَكُونُ عَلَى مَتْنِ الْبَاخِرَةِ بِحُلُولِ الْمَسَاءِ.»

وَبَعْدَ قَلِيلٍ، فُتِحَ الْبَابُ وَعَادَ الشُّرْطِيُّ وَاصْطَحَبَهُمْ إِلَى قَاعَةِ الْمَحْكَمَةِ.

دَخَلَ الْقَاضِي عباديا — وَهُوَ رَجُلٌ ضَخْمٌ مُمْتَلِئُ الْجِسْمِ — إِلَى الْقَاعَةِ.

وَنَادَى الْقَاضِي: «الْقَضِيَّةُ الْأُولَى!»

فَصَاحَ حَاجِبُ الْمَحْكَمَةِ: «فيلياس فوج!»

فَقَالَ فيلياس: «حَاضِرٌ.»

دَخَلَ ثَلَاثَةُ رِجَالٍ إِلَى قَاعَةِ الْمَحْكَمَةِ، فِي الْبِدَايَةِ اعْتَقَدَ فيلياس وَباسبارتو أَنَّهُمْ مِنْ أَفْرَادِ الْعِصَابَةِ وَيُحَاوِلُونَ اسْتِعَادَةَ عودا مَرَّةً أُخْرَى، وَلَكِنْ مَا لَبِثَ أَحَدُهُمْ أَنْ قَدَّمَ حِذَاءَ باسبارتو!

قَالَ الْقَاضِي: «يَا سَيِّدُ باسبارتو، أَنْتَ مُتَّهَمٌ بِالدُّخُولِ غَيْرِ الْقَانُونِيِّ إِلَى مَعْبَدٍ، وَهَذَا الْحِذَاءُ دَلِيلٌ عَلَى وُجُودِكَ هُنَاكَ.»

صَاحَ باسبارتو: «حِذَائِي!»

– «إِذَنْ، أَنْتَ تَعْتَرِفُ بِأَنَّكَ كُنْتَ هُنَاكَ؟»

أَوْمَأَ باسبارتو بِرَأْسِهِ بِبُطْءٍ.

– «حَسَنًا، سَتَدْفَعُ غَرَامَةً قَدْرُهَا مِائَةٌ وَخَمْسُونَ جُنَيْهًا وَسَتَقْضِي أُسْبُوعًا فِي الْحَجْزِ.»

قَالَ فيلياس: «سَوْفَ أَدْفَعُ كَفَالَتَهُ حَتَّى لَا يَدْخُلَ السِّجْنَ، مَا قَدْرُهَا؟»

نَظَرَ الْقَاضِي إِلَيْهِ وَقَالَ: «إِنَّهَا بَاهِظَةٌ لِلْغَايَةِ يَا سَيِّدِي؛ أَلْفَا جُنَيْهٍ.»

أَخَذَ فيلياس لُفَافَةً مِنَ الْأَمْوَالِ مِنْ حَقِيبَتِهِ الْقُمَاشِيَّةِ وَدَفَعَ الْكَفَالَةَ.

كَانَ الْمُحَقِّقُ فيكس يَقِفُ فِي نِهَايَةِ الْقَاعَةِ وَيُشَاهِدُ مَا يَحْدُثُ، وَكَانَ قَدْ ظَنَّ أَنَّهُ وَجَدَ وَسِيلَةً مُؤَكَّدَةً لِإِبْقَاءِ فيلياس فِي الْهِنْدِ حَتَّى يَحْصُلَ عَلَى أَمْرٍ رَسْمِيٍّ بِإِلْقَاءِ الْقَبْضِ عَلَيْهِ، وَلَكِنِ الْآنَ بَعْدَ أَنْ خَرَجَ باسبارتو بِكَفَالَةٍ، يَبْدُو أَنَّ فيلياس سَيُفْلِتُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ مُجَدَّدًا! وَلَمْ يَكُنْ يَتَخَيَّلُ عَلَى الْإِطْلَاقِ أَنَّ اللِّصَّ سَيَكُونُ بِهَذَا السَّخَاءِ.

قَالَ الْقَاضِي: «حَسَنًا، هَذِهِ الْأَمْوَالُ سَتَعُودُ إِلَيْكَ عِنْدَمَا يُكْمِلُ باسبارتو فَتْرَةَ الْعُقُوبَةِ فِي السِّجْنِ، وَلَكِنْ إِنْ لَمْ يَعُدْ فَسَنُصَادِرُ الْأَمْوَالَ.»

أَوْمَأَ فيلياس وَقَالَ: «حَسَنًا يَا سَيِّدِي»، ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَى عودا وَباسبارتو وَقَالَ: «لِنَذْهَبْ!» اخْتَطَفَ باسبارتو حِذَاءَهُ وَهُوَ خَارِجٌ: «يَجِبُ أَنْ نَتَّجِهَ إِلَى رَصِيفِ الْمِينَاءِ فِي الْحَالِ!»

وَفِي أَسًى، اتَّبَعَ باسبارتو سَيِّدَهُ، فَلَمْ يَكُنْ سَعِيدًا أَنَّ رَئِيسَهُ قَدْ أَنْفَقَ كُلَّ هَذِهِ الْأَمْوَالِ بِسَبَبِ خَطَأٍ اقْتَرَفَهُ هُوَ، وَلَمَحَ فيكس يَقِفُ فِي الزَّاوِيَةِ وَيَبْدُو عَلَيْهِ الْغَضَبُ الشَّدِيدُ، وَلِوَهْلَةٍ تَعَجَّبَ باسبارتو عَمَّا يَفْعَلُهُ هُنَاكَ، لَكِنَّهُ كَانَ عَلَى عَجَلَةٍ مِنْ أَمْرِهِ، فَلَمْ يُعْطِ لِلْأَمْرِ اهْتِمَامًا.

الفصل العاشر

الرِّحْلَةُ مِنَ الْهِنْدِ إِلَى هونج كونج

صَعِدَ الْمُسَافِرُونَ الثَّلَاثَةُ عَلَى مَتْنِ الْبَاخِرَةِ «رانجون» فِي مَوْعِدِهِمْ، وَكَانَتِ الْبَاخِرَةُ عَلَى وَشْكِ الرَّحِيلِ إِلَى هونج كونج. قَضَتْ عودا أَغْلَبَ أَيَّامِهَا الْأُولَى فِي الرِّحْلَةِ فِي التَّعَرُّفِ عَلَى فيلياس وَباسبارتو، وَحَكَتْ لَهُمَا قِصَّةَ حَيَاتِهَا؛ فَقَدْ كَانَ وَالِدُهَا تَاجِرَ قُطْنٍ فَاحِشَ الثَّرَاءِ، وَقَدْ عَاشُوا حَيَاةً رَغْدَةً حَتَّى وَاجَهَتْ وَالِدَهَا مُشْكِلَاتٌ مَعَ قُطَّاعِ الطَّرِيقِ. ثُمَّ أَخْبَرَتْهُمْ عَنْ قَرِيبِهَا جيجاه جيجيبوي الَّذِي يَعِيشُ فِي هونج كونج.

وَكَمَا كَانَ الْحَالُ عَلَى مَتْنِ الْبَاخِرَةِ «منغوليا»، قَضَى باسبارتو مُعْظَمَ أَوْقَاتِ الظَّهِيرَةِ يَتَمَشَّى عَلَى سَطْحِ الْبَاخِرَةِ. وَفِي أَحَدِ الْأَيَّامِ وَبَيْنَمَا كَانَ يَتَنَزَّهُ، تَفَاجَأَ بِرُؤْيَةِ السَّيِّدِ فيكس!

قَالَ باسبارتو: «يَا إِلَهِي! مَاذَا تَفْعَلُ هُنَا بِحَقِّ السَّمَاءِ يَا سَيِّدِي؟ لَقَدْ تَرَكْتُكَ فِي بومباي، وَرَأَيْتُكَ لِفَتْرَةٍ وَجِيزَةٍ فِي كلكتا، وَالْآنَ أَنْتَ هُنَا فِي طَرِيقِكَ إِلَى هونج كونج. هَلْ أَنْتَ أَيْضًا تَقُومُ بِجَوْلَةٍ حَوْلَ الْعَالَمِ؟»

قَالَ فيكس: «كَلَّا، كَلَّا، فَأَنَا سَأَتَوَقَّفُ فِي هونج كونج.»

كَانَ فيكس بِالْفِعْلِ قَدْ أَرْسَلَ بَرْقِيَّةً أُخْرَى إِلَى لَنْدَنَ لِيَطْلُبَ إِرْسَالَ أَمْرِ الْقَبْضِ إِلَى هونج كونج، وَكَانَتْ هَذِهِ فُرْصَتَهُ الْأَخِيرَةَ لِلْقَبْضِ عَلَى فيلياس فوج، لِصِّ الْبَنْكِ؛ إِذْ إِنَّهُ بِمُجَرَّدِ أَنْ يُغَادِرَ هونج كونج وَيَصِلَ إِلَى أَمْرِيكَا، فَلَنْ يَعُودَ عَلَى الْأَرَاضِي الْبِرِيطَانِيَّةِ، وَذَلِكَ يَعْنِي أَنَّ فيكس لَنْ يَسْتَطِيعَ إِلْقَاءَ الْقَبْضِ عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ. كَانَ فيكس يَشْعُرُ بِالْإِحْبَاطِ مِنْ وُصُولِهِ إِلَى هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ، وَيَشْعُرُ بِالتَّعَبِ مِنْ مُلَاحَقَةِ فيلياس حَوْلَ الْعَالَمِ.

سَأَلَ باسبارتو: «كَيْفَ لَمْ أَرَكَ مُنْذُ مُغَادَرَتِنَا كلكتا؟»

قَالَ فيكس: «آه، لَقَدْ كُنْتُ مُصَابًا بِدُوَارِ الْبَحْرِ، كَيْفَ حَالُ السَّيِّدِ فوج؟»

– «عَلَى خَيْرِ مَا يُرَامُ، لَا يَتَخَلَّفُ عَنْ جَدْوَلِهِ وَلَوْ بِيَوْمٍ وَاحِدٍ! وَالْآنَ تُسَافِرُ مَعَنَا سَيِّدَةٌ شَابَّةٌ كَذَلِكَ!»

تَظَاهَرَ فيكس بِالِانْدِهَاشِ، وَحَكَى لَهُ باسبارتو كَيْفَ أَنْقَذُوا عودا مِنْ قُطَّاعِ الطَّرِيقِ فِي الْهِنْدِ.

سَأَلَهُ فيكس: «وَهَلْ سَتُسَافِرُ عودا مَعَكُمْ مَرَّةً أُخْرَى إِلَى أُورُوبَّا؟»

– «كَلَّا، سَتُقِيمُ لَدَى قَرِيبِهَا فِي هونج كونج، حَيْثُ سَتَكُونُ بِأَمَانٍ هُنَاكَ.»

وَكَمَا كَانَ الْحَالُ تَمَامًا فِي كُلِّ ظَهِيرَةٍ عَلَى مَتْنِ الْبَاخِرَةِ «منغوليا»، كَانَ الرَّجُلَانِ يَحْتَسِيَانِ مَعًا كُوبَيْنِ مِنَ اللَّيْمُونِ وَيَسِيرَانِ عَلَى سَطْحِ السَّفِينَةِ مَعًا.

وَبِمُرُورِ الْأَيَّامِ، بَدَأَ باسبارتو يُفَكِّرُ أَنَّهُ مِنَ الْغَرِيبِ جِدًّا أَنْ يُصَادِفَ السَّيِّدَ فيكس كَثِيرًا. وَفَجْأَةً جَالَتْ بِخَاطِرِهِ فِكْرَةٌ اقْشَعَرَّ لَهَا بَدَنُهُ؛ «إِنَّهُ يَتَتَبَّعُنَا!»

– «نَعَمْ، إِنَّهُ بِالطَّبْعِ جَاسُوسٌ أَرْسَلُوهُ مِنْ نَادِي «ريفورم كلوب»، لَكِنَّ سَيِّدِي رَجُلٌ أَمِينٌ وَصَادِقٌ. إِنَّهُ لَأَمْرٌ فَظِيعٌ.»

وَقَرَّرَ أَلَّا يُبْلِغَ فيلياس بِالْأَمْرِ، فَلَمْ يُرِدْهُ أَنْ يُسِيءَ الظَّنَّ بِأَصْدِقَائِهِ مِنَ النَّادِي، وَلِهَذَا احْتَفَظَ بِالْأَمْرِ لِنَفْسِهِ. كَمَا لَمْ يُرِدْ أَنْ يُدْرِكَ السَّيِّدُ فيكس أَنَّهُ قَدْ عَلِمَ بِأَمْرِهِ، فَهَذَا قَدْ يُسَبِّبُ بَعْضَ الْمُشْكِلَاتِ بَيْنَ فيلياس فوج وَنَادِي «ريفورم كلوب»، وَكَانَ آخِرُ شَيْءٍ يُرِيدُهُ باسبارتو هُوَ أَنْ يُسَبِّبَ مَزِيدًا مِنَ الْمُشْكِلَاتِ لِسَيِّدِهِ.

رَسَتِ الْبَاخِرَةُ «رانجون» فِي سنغافورةَ قَبْلَ نِصْفِ يَوْمٍ مِنْ مَوْعِدِهَا، وَكَالْمُعْتَادِ دَوَّنَ فيلياس ذَلِكَ فِي دَفْتَرِ يَوْمِيَّاتِهِ، وَكَالْمُعْتَادِ كَذَلِكَ أَرْسَلَ باسبارتو لِقَضَاءِ مَهَامِّهِ الْمُعْتَادَةِ. وَأَرَادَتْ عودا رُؤْيَةَ بَعْضِ الْأَمَاكِنِ فِي الْجَزِيرَةِ، فَاصْطَحَبَهَا فيلياس فِي رِحْلَةٍ بِالْعَرَبَةِ، وَتَجَوَّلَا قَلِيلًا فِي الْمَدِينَةِ وَهُمَا يَسْتَنْشِقَانَ رَائِحَةَ الْقَرَنْفُلِ وَأَشْجَارِ جَوْزِ الطِّيبِ، وَرَأَيَا السَّرْخَسَ الْأَخْضَرَ وَصُفُوفًا مُتَعَدِّدَةً مِنْ أَشْجَارِ النَّخِيلِ.

كَمَا تَجَوَّلَا فِي الْمَدِينَةِ وَمَرَّا بِبُيُوتِهَا وَحَدَائِقِهَا السَّاحِرَةِ. وَبِنِهَايَةِ فَتْرَةِ الصَّبَاحِ، عَادَا إِلَى مَتْنِ الْبَاخِرَةِ «رانجون» وَكَانَا مُسْتَعِدَّيْنِ لِلْإِبْحَارِ ثَانِيَةً. كَمَا أَنْهَى باسبارتو مَهَامَّهُ وَأَحْضَرَ بَعْضَ الْفَاكِهَةِ الطَّازَجَةِ الَّتِي شَارَكَهَا مَعَ عودا فَوْرَ عَوْدَتِهَا إِلَى سَطْحِ الْبَاخِرَةِ، ثُمَّ وَدَّعَ الْمُسَافِرُونَ الثَّلَاثَةُ سنغافورة، وَالْبَاخِرَةُ تُغَادِرُ الْمِينَاءَ مُتَّجِهَةً إِلَى هونج كونج.

كَانَتِ الْأَيَّامُ الْأُولَى مِنَ الرِّحْلَةِ هَادِئَةً تَخْلُو مِنَ الْأَحْدَاثِ، فَكَانَ الطَّقْسُ جَمِيلًا وَالرِّيَاحُ مُعْتَدِلَةً، وَلَكِنْ فِي مُنْتَصَفِ الطَّرِيقِ فِي الرِّحْلَةِ الَّتِي تَسْتَغْرِقُ اثْنَيْ عَشَرَ يَوْمًا، تَغَيَّرَ الطَّقْسُ، فَبَدَأَتْ أَمْوَاجُ الْبَحْرِ تَهْتَاجُ مَعَ بِدَايَةِ الْعَاصِفَةِ، وَتَخَلَّفَتِ السَّفِينَةُ عَنْ مَوْعِدِهَا، وَقَدْ أَغْضَبَ ذَلِكَ باسبارتو فِي حِينِ حَافَظَ فيلياس فوج عَلَى هُدُوئِهِ.

كَانَ فيلياس يُمْضِي نَهَارَهُ مَعَ عودا، بَيْنَمَا كَانَ يُدَوِّنُ مُلَاحَظَاتِهِ فِي الْمَسَاءِ.

وَفِي أَحَدِ الْأَيَّامِ، وَجَدَ فيكس باسبارتو يَتَحَرَّكُ جِيئَةً وَذَهَابًا بِتَوَتُّرٍ عَلَى سَطْحِ السَّفِينَةِ.

فَقَالَ: «أَنْتَ عَلَى عَجَلَةٍ مِنْ أَمْرِكَ الْيَوْمَ!»

قَالَ باسبارتو: «عَجَلَةٌ شَدِيدَةٌ! الطَّقْسُ يُؤَخِّرُنَا، وَهَذِهِ السَّفِينَةُ لَيْسَتْ سَرِيعَةً بِمَا يَكْفِي.»

فَسَأَلَهُ فيكس: «إِذَنْ، أَنْتَ تُصَدِّقُ الْآنَ أَنَّكَ فِي جَوْلَةٍ حَوْلَ الْعَالَمِ؟»

قَالَ باسبارتو: «بِالطَّبْعِ يَا سَيِّدُ فيكس، أَلَا تُؤْمِنُ بِهَذَا؟» وَغَمَزَ لَهُ ثُمَّ سَارَ مُبْتَعِدًا.

حَيَّرَتْ تِلْكَ الْغَمْزَةُ فيكس، فَهَلْ كَانَتْ تَعْنِي أَنَّ باسبارتو قَدْ عَلِمَ أَنَّهُ مُحَقِّقٌ؟ هَلِ اكْتَشَفَ الْأَمْرَ؟ وَفِي الْيَوْمِ التَّالِي تَقَابَلَ الرَّجُلَانِ مَرَّةً أُخْرَى.

قَالَ باسبارتو: «حَسَنًا، هَلْ سَنَرَاكَ مُجَدَّدًا فِي طَرِيقِنَا إِلَى أَمْرِيكَا يَا سَيِّدُ فيكس؟» وَغَمَزَ لَهُ مَرَّةً أُخْرَى.

تَمْتَمَ فيكس: «امم، آهْ، لَا أَعْلَمُ.»

– «هَذَا غَرِيبٌ، فَلَقَدْ كُنْتَ مُسَافِرًا إِلَى بومباي فَقَطْ، وَلَكِنَّكَ بَعْدَ ذَلِكَ ذَهَبْتَ إِلَى كلكتا، وَهَا أَنْتَ الْآنَ فِي طَرِيقِكَ إِلَى هونج كونج.»

ضَرَبَ باسبارتو فيكس عَلَى ظَهْرِهِ ضَرْبَةً خَفِيفَةً وَهُوَ يُغَادِرُ، فَعَادَ فيكس إِلَى كَابِينَتِهِ وَهُوَ مُشَتَّتُ الذِّهْنِ؛ فَالْخَادِمُ حَتْمًا قَدِ اكْتَشَفَ الْحَقِيقَةَ، وَفَكَّرَ فِي نَفْسِهِ: «هُنَاكَ شَيْءٌ وَاحِدٌ فَقَطْ أَسْتَطِيعُ فِعْلَهُ، يَجِبُ أَنْ أُخْبِرَ باسبارتو بِكُلِّ شَيْءٍ.»

كَانَتِ الرِّيَاحُ تَشْتَدُّ فِي كُلِّ يَوْمٍ أَكْثَرَ عَمَّا قَبْلَهُ، وَكَانَتِ الْأَمْوَاجُ الْعِمْلَاقَةُ تَتَقَاذَفُ الْبَاخِرَةَ، فَأُجْبِرَتِ الْبَاخِرَةُ عَلَى الْإِبْحَارِ بِبُطْءٍ شَدِيدٍ، حَتَّى إِنَّهُمْ سَيَتَأَخَّرُونَ فِي الْوُصُولِ إِلَى هونج كونج لِمُدَّةِ يَوْمٍ كَامِلٍ وَظَلَّ فيلياس هَادِئًا بِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّ هَذَا التَّأْخِيرَ يَعْنِي أَنَّهُ حَتْمًا سَيَخْسَرُ الرِّهَانَ، فَلَقَدِ اسْتَهْلَكَ كُلَّ الْأَيَّامِ الزَّائِدَةِ فِي الْهِنْدِ عِنْدَمَا أُجْبِرُوا عَلَى السَّفَرِ عَلَى

ظَهْرِ الْفِيلَةِ، وَكَانَ يَأْمُلُ فِي الْحُصُولِ عَلَى الْمَزِيدِ مِنَ الْوَقْتِ. كَانَتْ عودا مُنْدَهِشَةً مِنْ أَنَّهُ لَا يَشْعُرُ بِالْقَلَقِ لِأَنَّهُمْ سَيفُوتُهُمُ الْمَرْكَبُ مِنْ هونج كونج إِلَى الْيَابَانِ.

بِالطَّبْعِ كَانَ فيكس سَعِيدًا بِهَذَا التَّأْخِيرِ، فَذَلِكَ يَعْنِي أَنَّ مُذَكِّرَتَهُ لَدَيْهَا الْمَزِيدُ مِنَ الْوَقْتِ لِلْوُصُولِ، أَمَّا باسبارتو الْمِسْكِينُ فَكَانَ يَتَمَشَّى ذَهَابًا وَإِيَابًا فِي كُلِّ اتِّجَاهٍ مِنْ شِدَّةِ قَلَقِهِ.

عِنْدَمَا رَسَتِ الْبَاخِرَةُ أَخِيرًا فِي هونج كونج، غَادَرَ الرُّكَّابُ الثَّلَاثَةُ الْبَاخِرَةَ «رانجون» وَذَهَبُوا لِيَسْأَلُوا عن الْبَاخِرَةِ الْمُتَّجِهَةِ إِلَى مَدِينَةِ يوكوهاما، وَسَأَلَ فيلياس فِي مَكْتَبِ الْجَوَازَاتِ إِذَا كَانُوا قَدْ تَخَلَّفُوا عَنْ مَوْعِدِ الْبَاخِرَةِ أَمْ لَا.

قَالَ الْمُوَظَّفُ الَّذِي يَخْتِمُ جَوَازَ السَّفَرِ: «كَلَّا، فَقَدْ كَانَتْ لَدَيْهِمْ مُشْكِلَةٌ فِي أَحَدِ الْمَرَاجِلِ؛ فَسَتَتَأَخَّرُ حَتَّى أَوْجِ الْمَدِّ فِي صَبَاحِ الْغَدِ.»

قَالَ فيلياس دُونَ أَنْ تَعْكِسَ مَلَامِحُهُ أَيَّ مَشَاعِرَ: «حَسَنًا، مَا هُوَ اسْمُ الْبَاخِرَةِ؟»

قَالَ الْمُوَظَّفُ: ««كارناتيك»، وَمَكْتَبُ التَّذَاكِرِ فِي نِهَايَةِ الشَّارِعِ.»

انْتَزَعَ باسبارتو يَدَ الرَّجُلِ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ بِحَفَاوَةٍ شَدِيدَةٍ وَهُوَ يَقُولُ بِحَمَاسٍ: «شُكْرًا لَكَ! شُكْرًا لَكَ! أَنْتَ أَفْضَلُ الرِّجَالِ الطَّيِّبِينَ!»

لَقَدْ كَانَ الْحَظُّ فِي جَانِبِهِمْ! فَلَوْ لَمْ يَكُنِ الْمَرْكَبُ قَدْ تَوَقَّفَ لِلإِصْلَاحِ، لَكَانَ عَلَيْهِمُ الِانْتِظَارُ لِأُسْبُوعٍ آخَرَ قَبْلَ السَّفَرِ إِلَى الْيَابَانِ. حَجَزَ فيلياس غُرَفًا لَهُمْ فِي فُنْدُقِ «كلوب هوتيل» حَيْثُ سَيَقْضُونَ الْوَقْتَ هُنَاكَ حَتَّى يَصْعَدُوا عَلَى مَتْنِ الْبَاخِرَةِ فِي الْيَوْمِ التَّالِي، حَيْثُ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّرِ أَنْ تُبْحِرَ الْبَاخِرَةُ فِي الْخَامِسَةِ مِنْ صَبَاحِ الْيَوْمِ التَّالِي. وَبَعْدَ الِانْتِهَاءِ مِنْ تَرْتِيبِ هَذَا الْأَمْرِ، تَرَكَ فيلياس عودا فِي صُحْبَةِ باسبارتو وَانْطَلَقَ لِيَبْحَثَ عَنْ قَرِيبِهَا جيجاه جيجيبوي.

وَبَيْنَمَا كَانَ فِي السُّوقِ، صَادَفَ فيلياس تَاجِرًا يَعْرِفُ جيجاه جيجيبوي، وَقَالَ لَهُ ذَلِكَ التَّاجِرُ إِنَّ السَّيِّدَ جيجيبوي قَدْ غَادَرَ هونج كونج مُنْذُ عَامَيْنِ وَانْتَقَلَ إِلَى هُولَنْدَا.

وَعِنْدَمَا عَادَ فيلياس إِلَى الْفُنْدُقِ جَلَسَ مَعَ عودا لِيُخْبِرَهَا أَنَّ قَرِيبَهَا قَدِ انْتَقَلَ.

فِي الْبِدَايَةِ لَمْ تَقُلْ شَيْئًا وَظَلَّتْ تُفَكِّرُ، ثُمَّ قَالَتْ بِصَوْتِهَا الْحُلْوِ الرَّقِيقِ: «مَا الَّذِي عَلَيَّ فِعْلُهُ يَا فيلياس؟»

فَقَالَ: «هَذَا بَسِيطٌ جِدًّا، عَلَيْكِ الذَّهَابُ إِلَى أُورُوبَّا.»

– «وَلَكِنَّنِي لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَكُونَ عَقَبَةً فِي طَرِيقِكَ.»

فَقَالَ فيلياس: «هَذَا هُرَاءٌ، فَأَنْتِ لَسْتِ عَقَبَةً نِهَائِيًّا. إِنَّهُ لَمِنْ دَوَاعِي سُرُورِنَا أَنْ تُرَافِقِينَا فِي رِحْلَتِنَا. باسبارتو!»

– «سَيِّدِي؟»

– «رَجَاءً احْجِزْ ثَلَاثَ كَبَائِنَ عَلَى مَتْنِ الْبَاخِرَةِ «كارناتيك»، فَسَنَذْهَبُ جَمِيعًا إِلَى الْيَابَانِ، وَمِنْ هُنَاكَ سَنَتَّجِهُ إِلَى أَمْرِيكَا.»

شَعَرَ باسبارتو بِسَعَادَةٍ غَامِرَةٍ لِأَنَّ عودا سَتُسَافِرُ مَعَهُمْ، وَقَفَزَ بِسَعَادَةٍ مُغَادِرًا الْغُرْفَةَ لِيُنَفِّذَ مُهِمَّتَهُ الْجَدِيدَةَ.

الفصل الحادي عشر

باسبارتو يُبَالِغُ فِي الاِهْتِمَامِ لِأَمْرِ فيلياس فوج ... وَعَاقِبَتُهُ ذَلِكَ

أَخَذَ باسبارتو يَتَجَوَّلُ فِي هونج كونج وَهُوَ يَضَعُ يَدَيْهِ فِي جُيُوبِهِ، وَكَانَ الْمِينَاءُ يَعِجُّ بِالْعَدِيدِ مِنَ السُّفُنِ مِنْ شَتَّى أَنْحَاءِ الْعَالَمِ: إِنْجِلْتِرَا وَفَرَنْسَا وَالْأَمْرِيكَتَيْنِ وَهُولَنْدَا وَالْيَابَانِ وَالصِّينِ. وَعِنْدَمَا وَصَلَ إِلَى رَصِيفِ الْمِينَاءِ حَيْثُ سَيَحْجِزُ كَبَائِنَ عَلَى مَتْنِ الْبَاخِرَةِ «كارناتيك»، رَأَى فيكس هُنَاكَ، وَلَمْ يَكُنْ مُنْدَهِشًا.

كَانَ الْمُحَقِّقُ نَفْسُهُ لَا يَبْدُو سَعِيدًا؛ إِذْ إِنَّ مُذَكِّرَتَهُ لَمْ تَصِلْ بَعْدُ.

قَالَ باسبارتو: «حَسَنًا، حَسَنًا، هَلْ قَرَّرْتَ الِانْضِمَامَ إِلَى رِحْلَتِنَا إِلَى أَمْرِيكَا يَا فيكس؟»

أَجَابَهُ فيكس وَهُوَ يَكُزُّ عَلَى أَسْنَانِهِ: «نَعَمْ.»

قَالَ باسبارتو: «حَسَنًا! كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّ الْحَالَ سَيَنْتَهِي بِكَ مَعَنَا! تَعَالَ لِنَحْجِزْ كَبَائِنَنَا.»

وَذَهَبَ الرَّجُلَانِ إِلَى مَكْتَبِ الْبَاخِرَةِ حَيْثُ أَخْبَرَهُمَا الْمُوَظَّفُ أَنَّ إِصْلَاحَ السَّفِينَةِ قَدِ انْتَهَى الْآنَ، وَسَتُبْحِرُ فِي الْمَسَاءِ بَدَلًا مِنْ صَبَاحِ الْغَدِ.

قَالَ باسبارتو: «رَائِعٌ! سَأَذْهَبُ لِأُخْبِرَ سَيِّدِي، سَيَكُونُ سَعِيدًا لِلْغَايَةِ.»

قَرَّرَ فيكس أَنَّ الْوَقْتَ قَدْ حَانَ لِيُخْبِرَ باسبارتو بِكُلِّ شَيْءٍ؛ إِذْ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ هَذِهِ هِيَ الطَّرِيقَةُ الْوَحِيدَةُ لِإِبْقَاءِ فيلياس فوج فِي هونج كونج حَتَّى وُصُولِ مُذَكِّرَةِ الْقَبْضِ عَلَيْهِ، فَسَأَلَ الْخَادِمَ إِذَا كَانَ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ يُشَارِكَهُ وَجْبَةً مِنَ الطَّعَامِ، وَذَهَبَ الِاثْنَانِ إِلَى مَطْعَمٍ صَغِيرٍ قَرِيبٍ مِنَ الْمَرْفَأِ.

وَبِمُجَرَّدِ أَنْ دَخَلَا إِلَى الْمَطْعَمِ، وَجَدَا نَفْسَيْهِمَا فِي غُرْفَةٍ كَبِيرَةٍ مَلِيئَةٍ بِكَرَاسِيَّ مُرِيحَةٍ وَالْعَدِيدِ مِنَ الْوَسَائِدِ. وَتَجَاذَبَ الرَّجُلَانِ أَطْرَافَ الْحَدِيثِ عَلَى الْعَشَاءِ، وَعِنْدَمَا أَنْهَى باسبارتو وَجْبَتَهُ، نَهَضَ لِيُغَادِرَ، فَقَالَ لَهُ فيكس: «انْتَظِرْ، هُنَاكَ شَيْءٌ آخَرُ أَوَدُّ أَنْ أَتَحَدَّثَ مَعَكَ عَنْهُ.»

– «يَجِبُ أَنْ تَنْتَظِرَ، فَعَلَيَّ أَنْ أُخْبِرَ سَيِّدِي أَنَّ الْبَاخِرَةَ سَتُغَادِرُ مُبَكِّرًا.»

– «انْتَظِرْ! فَمَا أُرِيدُ قَوْلَهُ مُتَعَلِّقٌ بِالسَّيِّدِ فوج.»

وَضَعَ فيكس يَدَهُ عَلَى ذِرَاعِ باسبارتو وَقَالَ بِهُدُوءٍ: «لَقَدْ خَمَّنْتَ مَنْ أَكُونُ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟»

ابْتَسَمَ باسبارتو: «بِالطَّبْعِ.»

قَالَ فيكس: «حَسَنًا، فَإِنَّكَ حَتْمًا تَعْلَمُ أَنَّ مُهِمَّتِي تَنْطَوِي عَلَى أَمْوَالٍ طَائِلَةٍ، وَأَنَا مُسْتَعِدٌّ أَنْ أُعْطِيَكَ بَعْضًا مِنْهَا إِذَا أَبْقَيْتَ السَّيِّدَ فوج فِي هونج كونج. لَا تُخْبِرْهُ بِأَمْرِ السَّفِينَةِ.»

– «لَا أُخْبِرُهُ! لَقَدْ زَادَ الْأَمْرُ عَنْ حَدِّهِ يَا سَيِّدُ. لَقَدْ ظَنَنْتُ أَنَّ أَعْضَاءَ نَادِي «ريفورم كلوب» مِنَ الشُّرَفَاءِ.»

نَظَرَ فيكس إِلَى باسبارتو بِاسْتِغْرَابٍ لِوَهْلَةٍ ثُمَّ تَسَاءَلَ: «مَنْ تَظُنُّنِي؟»

– «أَنْتَ جَاسُوسٌ مُرْسَلٌ لِتَتَبُّعِنَا وَلِتَتَأَكَّدَ مِنْ أَنَّ فيلياس يَقُومُ بِرِحْلَةٍ نَزِيهَةٍ حَوْلَ الْعَالَمِ، وَيُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ قَدْ أُرْسِلْتَ لِتَتَدَخَّلَ فِي الْأَمْرِ، وَلَكِنَّنِي لَنْ أَسْمَحَ بِذَلِكَ. وَرُغْمَ ذَلِكَ، فَأَنَا لَمْ أُبْلِغْ سَيِّدِي بِأَيِّ شَيْءٍ بَعْدُ.»

قَالَ فيكس: «إِذَنْ فَإِنَّهُ لَا يَعْلَمُ شَيْئًا؟ حَسَنًا، انْتَظِرْ دَقِيقَةً، سَأُحْضِرُ لَنَا بَعْضًا مِنْ شَرَابِ الْكَاكَاو.»

نَهَضَ فيكس وَتَرَكَ الطَّاوِلَةَ، وَفِي طَرِيقِهِ لِإِحْضَارِ الْكَاكَاو تَوَقَّفَ لِيَتَحَدَّثَ مَعَ رَجُلٍ فِي زَاوِيَةٍ مُظْلِمَةٍ مِنَ الْغُرْفَةِ. وَكَانَ فيكس قَدْ طَلَبَ مِنَ هَذَا الرَّجُلِ — وَهُوَ مِنْ قِسْمِ شُرْطَةِ هونج كونج — أَنْ يَصْحَبَهُمْ إِلَى الْمَطْعَمِ، وَكَانَ فيكس يَعْلَمُ أَنَّ عَلَيْهِ أَنْ يَفْعَلَ شَيْئًا، فَلَا يُمْكِنُهُ أَنْ يَتْرُكَ فيلياس يُغَادِرُ هونج كونج.

عَادَ فيكس إِلَى الطَّاوِلَةِ وَمَعَهُ كُوبَانِ مِنَ الْكَاكَاو، وَبَدَأَ حَدِيثَهُ قَائِلًا: «باسبارتو، أَخْشَى أَنَّكَ مُخْطِئٌ، فَأَنَا لَسْتُ عُضْوًا فِي نَادِي «ريفورم كلوب»، بَلْ أَنَا مُحَقِّقٌ مِنْ لَنْدَنَ،